نجيب الريحاني

ناظر مدرسة الضحك فى الزمن الباكى

- الشيخ بحر علمه اللغة، والفرنسية وسعت نطاق مداركه..
- كشكش بيه.. أشهر شخصياته.
- قال عن نفسه، «أنا شربة مرة فى برشامة حلوة».
- كان ينقب فى هموم الناس ويعرضها ضاحكة
- فى ٢٤ سنة قدم ٨٠ مسرحية و «أوبريت» و٩ أفلام
- دورجاد يضجر الصالة بالضحك.
- أقعده «التيفوئيد» وقتله العلاج الأمريكى.

ربما كان نجيب الريحانى بسيطاً فى مظهره وهيئته، لكنه كان العملاق الأكثر تأثيراً على مدى ثلاثين عاماً، فى فن الأداء الكوميدى، فهو «ناظر» مدرسة الضحك، التى تخرج فيها عباقرة الكوميديا العربية، الذين جاءوا من بعده وأبرزهم إسماعيل ياسين، وعادل خيرى، وحسن فايق وعبد السلام النابلسى، وغيرهم.

استطاع الريحانى بخفة دمه، أن يصل بفنه إلى البسطاء، وعبر بالضحكة عن أعماقهم وجعل الدموع تسيل من عيونهم. وظل نجيب الريحانى يضحك الناس حينما كانت حياتهم كلها حزناً وهماً وألماً.

مَلَكَ الريحانى بأدائه البسيط المعجز القلوب فى مسرحياته الكثيرة وفى أفلامه القليلة. ولو شهد زمن التليفزيون لكان ملك الكوميديا بلا منازع، فهو لم يكن يلقى «النكات» بل كان ينقب فى هموم الناس ويعرضها ضاحكة.

بدأت موهبة الفنان الريحانى من المدرسة حيث أهلته دراسته الفرنسية للتعرف إلى عيون الأدب العالمى، وتنمية حسه الدرامى، وكان للشيخ «بحر» مدرس اللغة العربية. دور مهم، فى صقل مواهب الريحانى، خاصة فى الإلقاء والتلوين الصوتى، والإحساس بمعنى الكلمات والتعبير عنها، وهى الروافد التى أطل الريحانى منها بعد ذلك، على الناس.

ترك الريحانى المدرسة بسبب رحيل والده، والتحق بوظيفة فُصل منها لاحقا بسبب عشقه التمثيل. ثم التحق بالعمل فى مسرح عزيز عيد، وظل ينتقل من فرقة إلى أخرى ويجرب حظه فى «التراجيديا» تارة والكوميديا طوراً، إلى أن اخترع شخصية، كشكش بك، واستقر على الكوميديا.

اسمه الحقيقى نجيب إلياس ريحانة، ولد سنة ١٨٩٠م، وعاش صباه فى حى باب الشعرية، الذى شهد مولد ونشأة الفنان محمد عبد الوهاب، ومن قبله يعقوب صنوع، وكان والده تاجراً للخيول فى نجع حمادى فى الصعيد، وتزوج بقاهرية تدعى «لطيفة» وانتقلا معا إلى القاهرة واستقر المقام بهما بين «الطشطوشى» و «باب الشعرية»، تجرى فى عروق الريحانى دماء مشرقية، حيث كان أجداده يعيشون فى بلاد ما بين النهرين.

التحق نجيب الريحانى فى صباه بمدرسة الفرير، وأجاد فى شبابه اللغة الفرنسية، مما كان له عظيم الأثر فى ثقافته المسرحية والفنية. فقرأ موليير وفيكتور هوغووفولتير وإميل زولا وجان جاك روسو.

ملك النمسا وصلاح الدين

ولم يكن طريق الفن ممهدا وبسيطاً أمام الريحانى فقد بدأ طريقه فى المسرح مع التراجيديا فى «مسرح جورج أبيض» فى مسرحية «صلاح الدين الأيوبى» وقام فيها بدور «ملك النمسا» ورغم جدية الدور والأداء إلا أن الجمهور ضج بالضحك، واندفع إليه «جورج أبيض» ثائراً، كاتماً ضحكة تكاد تقفز إلى شفتيه وصرخ فى وجهه «ويل لملك النمسا من قلب الأسد».

وفُصل الريحانى على آثرها من المسرح، وبات يعانى البطالة بعد أن أغلقت المسارح أبوابها فى وجهه، وأخذ يتسكع بين المقاهى مع الممثلين المفلسين ومنهم «أمين صدقى واستيفان روستى وحسن فايق» إلى أن منحهم صديق ثرى عشرة جنيهات كونوا بها فرقة «الكوميديا العربية» عام ١٩١٥. تحت إشراف عزيز عيد.

وعلى مدى ٣٤ عاما قدم الريحانى ٨٠ مسرحية و«أوبريت» إضافة إلى أفلامه السينمائية، التى بدأها بفيلم صاحب السعادة كشكش بيه ثم فيلم «ياقوت أفندى» وختمها بدور فى «غزل البنات» وكان توءمه فى مشواره الكاتب الساخر «بديع خيرى» وقد شهدت الكوميديا بداية العام ١٩١٥، تطوراً كبيراً من كوميديا «الفصل المضحك» إلى «الاستعراض» ثم «الأوبريت» ثم الكوميديا التى تختص بمغزى أخلاقى واجتماعى جاد.

وابتكر الريحانى شخصية كشكش بك، التى كانت سبباً فى شهرته، واشترك مع سيد درويش فى التعبير عن أحداث ثورة ١٩١٩ فى أوبريت «العشرة الطيبة»

بساطة

لم يكن أحد يدرى أن موظفا فى شركة السكر فى «نجع حمادى» اسمه نجيب الريحانى، سيجعل الفلاح والعامل ورجل الشارع يشاهدون صورهم فى مسرحيات اجتماعية معاصرة، فى وقت كان اهتمام الفن مقصوراً على الطبقات الأرستقراطية، وعندما استقال هذا الموظف البسيط بسبب هواية التمثيل، ذهب إلى المسرح ليجسد دور الإنسان المصرى البسيط ويعلن عن بدء فن الكوميديا المصرية.

وأعاد الريحانى سنة ١٩٣١، كتابة مسرحية «نوبار» لمارسيل بانيول. وعربها وقدمها تحت عنوان «الجنيه المصرى» وهى كوميديا سخر فيها من مظاهر الفساد والفوضى قبل الثورة. وواصل التقدم حتى وصل إلى مرحلة الأزدهار والانتشار، وظهر ذلك مع مسرحية «الدنيا لما تضحك»، التى كتبها عام ١٩٣٤ متجهاً فيها إلى النقد الاجتماعى الساخر، لكن بهدوء واضح حتى لا يعمل على إثارة الفقراء ضد الأغنياء، وكانت قمة الاكتمال الفنى فى أعماله فى آخر مسرحياته الكوميدية، التى حملت عنوان «سلاح اليوم» وقدمها عام ١٩٤٦، حيث جمعت بين السخرية والشفقة والفكاهة، وإن لم تخل من نغمة كآبة واستسلام.

الممثل الثائر

أما الجانب السياسى من حياة الريحانى فقد لا يعرفه إلا القليل من الناس، فكثيراً ما خرجت التظاهرات السياسية من مسرحه، مطالبة بالحرية والاستقلال متأثرين بما قدمه من مسرحيات، وكانت وطنيته سبباً فى أن «الملك فؤاد» رفض منحة درجة «البكوية» رغم أنه يستحقها. مثل «يوسف وهبى» و «سليمان نجيب»

وإن كانت «سرايا» الملك بررت ذلك بالقول إن وهبى ونجيب من أبوين يحملان رتبة «باشا».

وكانت رسالة الريحانى كما يقول عن نفسه: «شربة اجتماعية مرة فى برشامة ظاهرها إضحاك الناس على آلام الناس، فإذا خلوا لأنفسهم تمعنوا فبكوا من الألم، وهنا يبدأ مفعول البرشامة فى تنظيف النفوس. لا البطون» فقد كان الريحانى يسيطر تماماً على جمهوره لأنه ممثل نادر.

نصف نجيب الأخر

فى حياة نجيب الريحانى حبان: الأول لصديقه ورفيق مشوار نجاحه بديع خيرى، والثانى لزوجته بديعة مصابنى.

تعرف الريحانى على بديع خيرى من خلال جورج شفتشى، الذى ادعى أنه يجيد كتابة الزجل فعينه الريحانى فى فرقته، إلى أن اكتشف أن كاتب الأزجال الحقيقى هو بديع خيرى، وأنه أعطاها لشفتشى لحاجته إلى المال، وبتعارف الريحانى وبديع عرفت الدراما المصرية أفضل ثنائى فنى، وأخذ الريحانى يجنى ثمار هذا النجاح حتى نهاية حياته سنة ١٩٤٩م فى السينما والمسرح. بل إن الفترة التى افترق فيها الرجلان سنة ١٩٢٧ تقريباً. هى ذاتها التى شهدت الأشهر العجاف فى مشوار النجم الكبير، بعد أن ذاق حلاوة النجاح، واضطر آثرها إلى العودة إلى بديع خيرى وتكوين فرقتهما المشتركة واقتسام الحياة معا. وهى الفرقة التى ظلت تحمل اسم الريحانى حتى بعد وفاته، وظل بديع يديرها بإخلاص حتى وفاته سنة ١٩٦٦.

أما اللقاء الأول بين الريحانى وبديعة مصابنى، فيقول عنه نجيب «أثناء عملى فى رواية، ٢٤ قيراط، دخلت إلى غرفتى فتاة، شعرها طويل يكاد يصل إلى الأرض، وعيناها فيهما صواريخ تضرب على بعد عشرين متراً، شفتاها لو عصرتا تخران عناباً، تتكلم وكأنها تغنى وتغنى وكأنها تتكلم. خفيفة الدم، حاضرة النكتة. وجريئة وكأنها تعرف أسلحة الجمال التى فى جسدها».

وقفت أتساءل: «هل هى من لحم ودم وعظم مثلنا؟ هل تأكل وتشرب مثل سائر البشر؟ هل فى جسمها فشة وكرشة ومرارة وطحال وكبد وبنكرياس مثلنا؟

شعرت لحظتها بأن غذاءها من حبات القلوب، وعشاءها من فرط الرمان. وريقها من عصير التفاح، ودموعها من ماء الورد، وعرقها من شربات اللوز، وغسيل قدميها من العرقسوس».

كانت هذه نظرة نجيب الريحانى إليها فى لقائهما الأول وقد قرر بعد ذلك أن يضمها إلى فرقته تمهيداً لضمها إلى صدره، فقد أحبها من النظرة الأولى، إلى أن تم الزواج سنة ١٩٢٤م.

وكان المسرح يعانى من أزمة كبيرة باستثناء مسرح رمسيس، وكان الريحانى يبحث عن مَخْرَج ينقذه وفرقته، وفى هذه الأثناء عرض عليه مغترب عربى مقيم فى البرازيل أن يقدم عدة عروض هناك مقابل مبلغ ضخم من المال، وعندما استعد الريحانى إلى السفر، رفضت بديعة، التى كانت قد أصبحت ممثلة الفرقة الأولى، أن تسافر إلا إذا تزوجها نجيب الريحانى، فأخبرها بأن هذا ما كان يحلم به، وبالفعل تم الزواج سنة ١٩٢٤، وسافرا ألى البرازيل واستمر زواجهما حوالى عشر سنوات.

طفل فى كواليس الريحانى

كان الريحانى يأتى إلى مسرحه راكباً حنطوراً. وكانت الجماهير تلتف حوله كل ليلة. بينما كان طفل صغير يلبس «جلباباً وصندلاً» يراقب الريحانى بإعجاب شديد من الرصيف المقابل.

ونزل الريحانى مرة من الحنطور واتجه مباشرة نحو الطفل الذى لم يصدق نفسه من أثر المفاجأة. وأمسك الريحانى بيده. واصطحبه إلى المسرح، وطلب حجز كرسى له فى الصف الأول فرفض الطفل، وطلب منه أن يقف فى «الكواليس»، ورغم أن ذلك كان ممنوعاً، إلا أن الريحانى حقق للطفل رغبته وأعطاه نصف «فرنك» بعد انتهاء الحفلة.

وكان ذلك الطفل هو «محمد أبو الحسن» فنان الكوميديا المعروف.

مسرح المرآب

فكر نجيب الريحانى فى بداية حياته الفنية فى أن يكون فرقة خاصة لحسابه، وكانت المشكلة الأولى هى المكان الذى تعمل فيه الفرقة، وقد وجد حلاً لهذه المشكلة فى مرآب للسيارات يقع فى «حى الفجالة» فاستأجره وحوله إلى مسرح بدائى، خشبته عبارة عن مجموعة من الطاولات المرصوصة. أما الكراسى فكان على كل متفرج أن يحضر معه كرسيه.

وكانت أول مسرحية قدمها عليه هى «خلى بالك من إبليس» وأخرجها له عزيز عيد.

المشهد الأخير

تدهورت صحة الريحانى سريعاً، وفى الأيام الأخيرة من شهر مايو، وأوائل يونيو سنة ١٩٤٩ أنهى عروض مسرحه فى الإسكندرية، وعاد إلى القاهرة ثم دخل المستشفى اليونانى فى العباسية مصاباً بمرض «التيفوئيد» وعالجه الطبيب المعالج الدكتور محمود أبو بكر الدمرداش بك، أستاذ الأمراض الباطنية فى كلية طب «العباسية» التى أصبحت كلية الطب فى جامعة عين شمس. وأطلق اسمه على مستشفاها «مستشفى الدمرداش»

وقال الدمرداش إن الريحانى كان مصاباً منذ أشهر بأزمة قلبية، ثم تعرض لنزلة شعبية حادة أى أن قلبه ورئتيه كانت عليلة أيضاً، بجانب إصابته بالتيفوئيد. وقيل للريحانى أن شفاءه من التيفوئيد فى دواء جديد اسمه «رومايسين» وإنه لا يوجد إلا فى الولايات المتحدة الأمريكية.

تدخل مكرم عبيد باشا. وزير المالية آنذاك، وأمر بإحضار الدواء بالطائرة. وإعفائه من الجمارك. حتى يخرج سريعاً من المطار إلى المستشفى، أملا فى إنقاذ حياة النجم الكبير.

ووصل الدواء بالفعل، ولكن قبل أن يتناول الريحانى جرعة «الكرومايسين» حذره مدير المستشفى من ذلك، وقال إن الأدوية الأخرى تعطى نتائج طيبة، حتى ولو كانت بطيئة. لكن الريحانى، الذى يتعجّل الشفاء صمم على أخذ الجرعة، فحدثت له على الفور جلطة فى القلب، توفى على أثرها.

وبكت الملايين فى مصر والشرق. موت الفيلسوف الساخر والحكيم المرح. وشُيِّع جثمانه يوم الخميس التاسع من يونيو ١٩٤٩.

ووجدت فى شقته بعد وفاته نسخة من القرآن الكريم، وصورة الراهبة تيريزا، ومذكرات تشرشل بالفرنسية، وكتاب حسن البيان فى تفسير مفردات القرآن، وأعمال شكسبير، وألفية ابن مالك، و ٤٤ بدلة، و٢٠ بيجاما وجلباباً، و١٥ حذاء، وظلت كلبته الوفية «تيا» مضربة عن الطعام حزناً عليه، حتى ماتت بعده بأيام.

وتعلقت قلوب الناس به لأنه كان متعلقاً بشخصية «ابن البلد» بأصالتها، فكان انعكاساً للإنسان المصرى البسيط، وكان الريحانى دائما يؤكد ذلك، حيث قال حتى عندما أفلس وفشل أكثر من مرة فى المسرح: «أنا مدين بمكانتى وفنى ونجاحى لأستاذى العظيم جداً وهو (الفقر)، وبذلك استحق الريحانى أن تطلق الدولة اسمه على أحد شوارع العاصمة، وعلى مسرحه فى شارع عماد الدين.

أفلام الريحانى

قدم نجيب الريحانى. للسينما تسعة أفلام كان أولها سنة ١٩٣١، وآخرها سنة ١٩٤٩:

* «صاحب السعادة كشكش بيه» (١٩٣١): قصة وحوار نجيب الريحانى وبديع خيرى، وإخراج استيفان روستى وتوليو كاباريني، وتمثيل الريحانى، وانصاف رشدى، واستيفان رستى وحسين رياض وفوليت، وشرفنطح، وسيد سليمان وجبران نعوم. وكان الفيلم صامتًا ثم قُدم ناطقاً عام ١٩٣٤ باسم «حوادث كشكش بيه»

* ياقوت (١٩٣٤): حوار نجيب الريحانى وبديع خيرى، إخراج إميل روزبين، وتمثيل: الريحانى، وإيمى بريفان، وناهد كمال، وإدمون تويما، وبديع خيرى.

* «بسلامته عاوز يتجوز» (١٩٣٦): قصة وحوارنجيب الريحانى وبديع خيرى وسيناريو وإخراج الكسندر فاركاش. وبطولة الريحانى وعزيزة أمير، وعبد الفتاح القصرى، وحسن فايق وزينات صدقى، وبشارة واكيم وفتحية شريف، وزكريا أحمد وبهيجة أمير ومحمد مصطفى، ومارى منيب.

* «سلامة فى خير» (١٩٣٧): قصة وحوار الريحانى وبديع خيرى، سيناريو وإخراج نيازى مصطفى وبطولة الريحانى، وراقية إبراهيم. وحسين رياض، وميمى شكيب، وروحية خالد، وفؤاد شفيق، وشرفنطح. واستيفان روستى. وحسن فايق، وفردوس محمد، ومنسى فهمى.

* «سى عمر» (١٩٤١): سيناريو وإخراج نيازى مصطفى وقصة وحوار الريحانى وبديع خيرى، تمثيل: نجيب الريحانى، وميمى شكيب، وشرفنطح، وعبد الفتاح القصرى، ومارى منيب، وسراج منير، وعبد العزيز أحمد، واستيفان روستى.

* «لعبة الست» (١٩٤٦): سيناريو وإخراج ولى الدين سامح، وقصة وحوار نجيب الريحانى وبديع خيرى تمثيل: الريحانى، وتحية كاريوكا، مارى منيب، وعبد الفتاح القصرى، وعزيز عثمان، وحسن فايق، وبشارة واكيم، وسليمان نجيب، وسعيد أبو بكر.

* «أحمر شفايف» (١٩٤٦): سيناريو وإخراج ولى الدين سامح، قصة وحوار نجيب الريحانى وبديع خيرى، تمثيل: نجيب الريحانى، ساميه جمال، زوزو شكيب، عفاف شاكر، نبيل خورى، وداد حمدى، عبد العزيز خليل، صالحه قاصين وفؤاد شبل.

* «أبو حلموس» (١٩٤٧): سيناريو وإخراج إبراهيم حلمى، وحوار نجيب

الريحانى وبديع خيرى، تمثيل: الريحانى وزوزو شكيب، وعباس فارس، وماري منيب، وحسن فايق. واستيفان روستى، ومحمود الديب.

* «غزل البنات» (١٩٤٩): فكرة وسيناريو وإخراج أنور وجدى، قصة وحوار نجيب الريحانى وبديع خيرى، تمثيل: الريحانى، وليلى مراد وسليمان نجيب، وعبد الوارث عسر، وفردوس محمد. ومحمود المليجى، وزينات صدقى، واستيفان روستى، وأنور وجدى ويوسف وهبى، وفريد شوقى، وسعيد أبو بكر.

إيمى بريفان

كانت الممثلة الفرنسية، إيمى بريفان، تشترك مع الريحانى فى بطولة مسرحياته، وقد أشركها فى فيلم «ياقوت» الذى أخرجه الفرنسى «روزبين». الذى كان يعمل مهندساً للمناظر فى فرقة الريحانى.